

يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْكِرَامَ،

قَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ وَجَعَلَ لَهُ بَدَنًا وَرُوحًا. بَيْنَمَا كَانَتْ أَبْدَانُنَا مَحْدُودَةً بِالْعَالَمِ الْجُسْمَانِيِّ وَالْمَرْيِيِّ فَإِنَّ أَرْوَاحَنَا مُتَّصِلَةٌ بِالْعَالَمِ الْمَعْنَوِيِّ. لَمَّا تَغَلَّبَ الْعَالَمُ الْمَادِّيُّ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، صَارَ هُنَاكَ تَرْكِيزٌ مَكْتَفٌ فِكْرِيٌّ وَذَهْنِيٌّ عَلَى الْبَدَنِ. فَأَصْبَحْنَا نَفَهُم مِّنَ الصَّحَّةِ صِحَّةَ الْبَدَنِ فَقَطُّ. وَلَمْ نُعْطِ الْأَهْمِيَّةَ اللَّازِمَةَ لِكَمَالِ الرُّوحِ الَّتِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ فِي رُتَبَةِ أَشْرَفِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَنَتِيجَةُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ هِيَ أَنَّ الْيَوْمَ قَدْ كَثُرَتِ الْأَمْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ مِثْلَ الْمَلَنُخُولِيَا وَالْإِنْخِفَاضِ النَّفْسِيِّ.

لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَصِلَ الرُّوحُ إِلَى الطَّمَانِينَةِ وَالْكَمَالِ إِلَّا بِتَرْكِيَةِ الْقَلْبِ وَهِيَ تَطْهِيرُهُ. وَتَطْهِيرُ الْقَلْبِ لَا يُمَكِّنُ إِلَّا بِتَرْبِيَةِ النَّفْسِ. وَإِنَّ النَّفْسَ لَا يُمَكِّنُ ضَبْطُهَا وَسَيْطَرَتُهَا إِلَّا بِالْمُجَاهِدَةِ الشَّدِيدَةِ مَعَهَا. يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ»¹

وَإِنَّ النَّفْسَ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ لَا يَنْفَكُ عَنْ حَيَاتِنَا وَهِيَ سَبَبُ امْتِحَانِنَا، لَا تَمُوتُ إِلَّا بِمَوْتِنَا. وَلَكِنْ يُمَكِّنُ تَرْبِيَتَهَا. لَيْسَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ مَحْفُوظٌ أَمَامَ تَهْلُكَةِ النَّفْسِ وَرُغُونَاتِهَا. وَقَدْ نُبِّهَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى هَذِهِ النُّقْطَةِ إِذْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾²

يَا إِخْوَتِي الْأَعْرَاءَ

بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَظَائِفِ الرَّسُولِ ﷺ فِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ حَيْثُ قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾³. فَكَمَا هُوَ

مَفْهُومٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يُرْسَلْ لِيُبَلِّغِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فَحَسْبُ. بَلْ كَانَ مُكَلَّفًا بِتَبْيِينِهِ وَتَفْسِيرِهِ وَتَعْلِيمِ الْحِكْمَةِ الَّتِي تَعَلَّمَهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَفَوْقَ ذَلِكَ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَامَ بِتَنْمِيَةِ الصَّحَابَةِ بِتَرْبِيَةِ نَفْسِهِمْ وَقَدْ أَكْمَلَ بِذَلِكَ وَظَيْفَتَهُ فِي الرِّسَالَةِ. يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ [أَي: حَاسَبَهَا] وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»⁴

يَا جَمَاعَتِي الْكَرِيمَةَ،

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الَّتِي خُلِقْنَا فِيهَا لِلْإِمْتِحَانِ، لَيْسَ فِيهَا مِنْ فِعْلِ الْعَاقِلِ أَنْ يَتَّبِعَ الشَّهَوَاتِ اللَّائِهَاتِيَّةَ وَأَنْ يُهْدِرَ عُمُرَهُ فِي لَذَاتِ فَانِيَةٍ. بَلْ فِعْلُ الْعَاقِلِ أَنْ يُفِيدَ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ بِمَحَاسَبَةِ نَفْسِهِ حَقًّا وَبِالْعَمَلِ لِذَارِ الْآخِرَةِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ، وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»⁵

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَعْرَاءَ،

أَكْبَرُ امْتِحَانٍ فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ، أَلَا وَهُوَ تَرْكُ اتِّبَاعِ الْهَوَى. وَلَا شَكَّ أَنَّ تَرْبِيَةَ النَّفْسِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ يَنْجَحُونَ فِي هَذَا الْإِمْتِحَانِ. فَمِنْ أَهَمِّ وَاجِبَاتِنَا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْ إِمْرَةِ النَّفْسِ وَمِنْ عُبُودِيَّتِهَا وَأَنْ نَعْمَلَ لِنَكُونَ أَمِيرًا عَلَى النَّفْسِ.

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا وَرَكِّ نَفُوسَنَا وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ. آمِينَ



⁴ جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة، ٢٥، رقم الحديث (٢٤٥٩)

⁵ صحيح ابن حبان، رقم الحديث (٤٨٦٢)

¹ جامع الترمذي، كتاب الجهاد، ٢

² سورة يوسف: ٥٣

³ سورة الجمعة: ٢